العنوان رواية السراب لنجيب محفوظ: مقاربة سيميائية

الدكتور مشهور موسى مشاهرة، أستاذ مساعد
في البلاغة والنقد والدراسات القرآنية،
قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة بيرزيت، فلسطين

ملخص

هذه دراسة سيميائية تزعم أن جميع ما في رواية "السراب" من علاقات اجتماعية وغير اجتماعية يمكن مقاربتها سيميائيا مع عنوان الرواية، وليس هذا بدعا من القول، فالأصل أن تكون جميع العناوين في النصوص العالمية كذلك.

وقد افتتحت الدراسة بتمهيد، تحدثت فيه عن سيميائية العنوان من حيث التاريخ، والمصطلح، ثم بلاغة العنوان عموما وخصوصا، إلى أن تخصّصَ الحديث عن نجيب محفوظ، وموضوع رواياته، وما فيها من إشارات رمزية، مع العناية برواية السراب على وجه التحديد، ومن ثمَّ دراسة سبع عشرة علاقة اجتماعية، ومقاربتها سيميائيا مع عنوان الرواية.

ABSTRACT

This semiotic study claims that all relations, social and other, in Najeeb Mahfuz As-Sarab can be semiotically approximated to the title. This is not a novelty of proposition, for all titles of high texts should be of the sort.

The study begins with an introduction in wich I discussed the semiotics of the title in terms of date and terminology, then I discussed its rethoric in general and specific, the discussion then narrowed its scope exploring Najeeb Mahfuz, the subject matter of his novels, and its content of symbolic signs, with special care devoted to As-Sarab. I then investigated seventeen relations, social and other, and I semiotically approximated them to the title of the novel.

مجلة منتدى الأستاذ: المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية ،سطيف المنصورة،25000، قسنطينة، الجزائر
الهاتف /الفاكس :98 29 62 31 (0) 213 00
e-mail :bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

سيميائية العنوان بين التقديم والتمهيد:

دوّن الباحثون في سيميائية العنوان دراسات كثيرة[1]، إلا أن بحث الدكتور جميل حمداوي في مجلة عالم الفكر قد تميّز من غيره – في ظني – عمقا وتجديدا وشمولا، فكان له حق الصدارة[2]. ومع ذلك، فهذا لا يقلل من جهود الباحثين الآخرين؛ فللدكتور محمد فكري الجزار كتاب نافعٌ موسوم بـــ: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي[3]، وللدكتور محمد عويس كتاب تأصيلي يُعالج فيه موضوع النشأة والتطور[4]، وللدكتور محمود الهميسي دراسة قدمها ورقة بحث في مؤتمر النقد في جامعة اليرموك سنة ست وتسعين وتسعمئة وألف للميلاد، بعنوان: براعة الاستهلال أو في صناعة العنوان مدخل إلى علم العنونة[5].

[1] ملحوظة: اقتصرت قراءتي على ما كتب بالعربية، أو ترجم إلى العربية، مع علمي أن في الآداب الأخرى، وخاصة الفرنسية كلاما نفيسا في هذا المجال على ما ذكر الباحثون، وممن عني بذلك من الفرنسيين: جيرار جينيت (G.Genette) وليو هوك (L.Hock) وغيرهما. انظر: قطوس، بسام، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، 2001م، ص7، ولكنْ، تبقى اللغة – كما هو معلوم – حجر عثرة في وجه كثير ممن لا يجيد لغات تلك الأمم.

[2] انظر: حمداوي، جميل، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، ع3، م25، 1997م.

[3] انظر: الجزار، محمد فكري، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.

[4] انظر: عويس، محمد، العنوان في الأدب العربي: النشأة والتطور، 1993م. ولم أقف على هذا الكتاب، ولكنني وقفت على فهرسة موضوعاته من كتاب د. محمد فكري جزار، المرجع السابق، ص143-146.

[5] انظر: الهميسي، محمود، براعة الاستهلال أو في صناعة العنوان، بحث مقدم إلى مؤتمر النقد الأدبي السادس، جامعة اليرموك، 15-17/1996م، ونشر في الموقف الأدبي، ع313، السنة27، أيار، 1997م. ومن الدراسات التي ضُمّنت داخل غيرها: مبحث للدكتور رشيد يحياوي، بعنوان: فضاء العنوان الشعري، ضمن كتاب: الشعر العربي الحديث: دراسة في المنجز النصي، إفريقيا الشرق، بيروت، 1998م، ص107-174.

وقد أفاد من هؤلاء جميعا الدكتور بسام قطوس، فصنف كتابا وسمه بـــ: سيمياء العنوان[6]. وهو من الكتب الجامعة، فيه تلخيص وترتيب لجهود السابقين، من عرب وأجانب، ومن ثَمَّ دراسات تطبيقية، وقد أفدت منه، كما غيره من الدراسات الجادة الأخرى[7].

العنوان بين الأَشكال والإِشكال:

لخّص الدكتور بسّام طقوس هذه القضية، وأعادها إلى إشكالية الترجمة والتعريب، واختلاف المرجعية، يقول: "السيميائية أو السيمائية، أو السيميولوجيا، أو السيميوطيقا، أو علم الإشارة، أو علم العلامات أو علم الأدلة...، ترجمات وتعريبات تطول لعمل واحد بمصطلحين شائعين هما: (Semiology) من (Semion) اليونانية، حسب العالم اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير (F.De Saussure) (1856-1913م) أو (Semiotics) حسب العالم والفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بيرس (CH.S.Perice)، (1838-1914م)"[8].

وفي دراستنا هذه، تبدو الثمرة الأدبية من هذه الأشكال جليّة في إمكانية دراسة العنوان ضمن علم النفس الاجتماعي، أو بالأحرى انفتاح النص على جميع الدلائل الممكنة، وذلك على اعتبار أن السيميائية هي الفرع الحقيقي أو الشرعي لعلم اللسانيات الحديثة[9]. وعليه، فإن

---

[6] انظر: قطوس، بسام، المرجع السابق.

[7] ولمزيد من الاطلاع على من كتب في السيميائية، انظر على سبيل المثال: سعد الله، محمد سالم، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقد البلاغي: الجرجاني نموذجا، جدارا للكتاب العالمي، عمان، 2007م. فقد صنع بيبليوغرافيا جيدة لمراجع مهمة في السيميائية، وذلك في كتابه آنف الذكر من ص165-199.

[8] قطوس، بسام، المرجع السابق، ص12، وانظر أصل هذا الكلام من جزار، محمد فكري، المرجع السابق، ص18-31. وانظر أيضا الحديث عن الجانب التاريخي للموضوع من: سعد الله، محمد سالم، المرجع السابق، ص7-32.

[9] انظر: بارت، رولان، درس السيميولوجيا، ت: عبد السلام بن عبد العال، دار توبقال، المعرفة الأدبية، 1993م، ص21.

السيميائية أصبحت بمفهومها الشامل: منهجا لدراسة العلامات ضمن الأنشطة الإنسانية، وغير الإنسانية[10].

بلاغة العنوان:

ولما كان العنوان "عبارة عن رسالة، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل والمرسل إليه بحيث يسهمان في التواصل المعرفي والجمالي، وهذه الرسالة مسننة بشيفرة لغوية يفككها المستقبل، ويؤولها بلغته الواصفة (الما وراء لغوية)، وهذه الرسالة ذات الوظيفة الشاعرية أو الجمالية ترسل عبر قناة، وظيفتها الحفاظ على الاتصال"[11]. ولما كان ذلك كذلك، من حيث اختزال العنوان لمضمون العمل الأدبي، وما فيه من أبعاد دلالية، وأخرى رمزية، تكشف عن غاية الإبداع الفني، فإن دراسته – لا شك – ترمي إلى فك شيفرته، وربط كل جزئية في النص بأهدابه. وهذا ليس بالطريق السهل، خاصة أن كثيرا من العناوين تخفي في ثناياها أكثر مما تظهر، الأمر الذي يرفع من شأن العنوان فنيا، ولكنه يكلف الباحث جهدا كبيرا.

ولقد تُحدِّث عن وظيفة العنوان كثيرا[12]، ولا عجب، فالعنوان للنص كالاسم للشيء، بل يزيد عنه بقصديته، وفنّيّته المرجوّة، ولذلك فهو جزء من الإبداع كما النص، لأنه يستلزم تعانقا بينه وبين عناصر الأدب كلها، وأيّما انقطاع في العلاقة سواء أكانت سردية أم حوارية يعدُّ خللا في العنوان، أو في تناول ركائز هذا العمل الأدبي.

[10] انظر: سعد الله، محمد سالم، المرجع السابق، ص1.
[11] حمداوي، جميل، المرجع السابق، ص100.
[12] انظر على سبيل المثال: الجزار، محمد فكري، المرجع السابق، ص7.

ولعلّ من المفيد أن أكرّر ما يقوله الباحثون، من أنّ التنظير وحده إن لم يكن مشفوعا بالجانب التطبيقي فهو كلام مبتور[13]. ومن ثَمَّ كانت دراستي هذه – في ما أحسب – تشدّ من عضد أخواتها من الدراسات التطبيقية، وتفتح عيون الباحثين على مراجعة واعية للنظر في تسلسل المعاني، وتوالفها مع العنوان الرئيسي للنص المبدَع[14].

نجيب محفوظ بين المجتمع المصري والمجتمع العربي:

عُني نجيب محفوظ بمشكلات المجتمع المصري خاصة، و بمشكلات المجتمع العربي عامة، فكتب في فترة مبكرة، يتفرّس قضايا الأمة العربية ويصوغها صياغة أديب بصير بالأدب وفلسفته، فكانت رواياته في مجملها اجتماعية واقعية.

تقول الدكتورة فوزية العشماوي: "لقد ارتدى نجيب محفوظ ثوب الناقد الاجتماعي الذي يهتم بالمشاكل الحقيقية التي كانت تثقل كاهل المجتمع المصري في الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وأبدى الكاتب اهتماما خاصا بمشاكل الطبقة المتوسطة على الأخص"[15]. وهذا كلام دقيق، فإن قارئ روايات نجيب محفوظ يعلم هذا على وجه اليقين، بل إن أي قارئ لنجيب يمكنه أن يسمي لنا من هذه الروايات ما لا نحتاج معه إلى تكلف في التدليل على ما تقوله الدكتورة.

المرأة في أدب نجيب محفوظ بين (الرمز والواقع):

[13] انظر هذا المعنى عند الجزار، محمد فكري، المرجع السابق، ص143.
[14] ومن الدراسات الأخرى سوى ما تقدم وهي كثيرة، دراسة ملحمة جلجامش سيميائيا للباحثة: زويش، نبيلة، في كتابها: تحليل الخطاب السردي في ضوء المنهج السيميائي، منشورات الاختلاف، ط1، 2003م، الجزائر، وانظر أيضا: سعد الله، محمد سالم، المرجع السابق.
[15] العشماوي، فوزية، المرأة في أدب نجيب محفوظ: مظاهر تطور المرأة في مصر المعاصرة من خلال روايات نجيب محفوظ(1954-1967)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2002،1م، ص28.

تقوا الدكتورة فوزية العشماوي: "المرأة والمجتمع المعاصر هما المحوران اللذان يدور حولهما معظم الإنتاج الأدبي للروائيين المصريين منذ نشأة الرواية العربية الحديثة، وهذه المقولة تنطبق بصدق أكثر على روايات نجيب محفوظ حيث يبدو جليا تطور الوضع الاجتماعي للمرأة، وتطور المجتمع المصري، والصراع المستمر الذي يعيش في كل من المرأة المصرية، والمجتمع المصري بين التقاليد الإسلامية الراسخة، والمدنية الأوروبية الحديثة"[16].

وهذا دقيق هو الآخر في تتبع وجود المرأة في أدب نجيب محفوظ، وذلك -في ظني- يعود إلى أسباب واقعية تعيشها المرأة، يسعى نجيب من خلال عرض مشكلاتها إلى تخليصها من براثن الماضي الجائر، ونقلها إلى المدنية الحديثة، بل إلى تحررها من كثير من التبعات الجاهلية التي تحكمها؛ سواء أكان ذلك بتقاليد بائدة مسمومة، أم بتعاليم إسلامية فُهمت لدى بعض الناس فهما خاطئا. ولعله يُهاتف السلطة كثيرا، ليشعرها خطورة ما تعيشه المرأة، التي أرى فيها رمزا للمجتمع المصري خاصة، والمجتمع العربي عامة، فتقدّمها يعني تقدم البلاد، وسقوطها يعني سقوط الثقافة العربية، على ان المرأة عنده ذات أبعاد رمزية أخرى كثيرة، فقد يرمز بها للبلاد، أو للثقافة البائدة، أو للعبودية، أو للتحرر، أو غير ذلك. ويتأكّد هذا إذا علمنا أن نجيب محفوظ كما تقول الدكتورة فوزية العشماوي يختار "لرواياته وقصصه نساء عاديات من هذه الطبقة المتوسطة، لهن مشاكل عادية، ولكنها حقيقية واقعية"[17]. وهذا يرجع إلى اهتمامات نجيب محفوظ الماثلة في المجتمع المصري أو العربي المغلوب على أمره، أو الواقع تحت سلطات ظالمة. وتتابع الدكتورة فوزية قائلة: "وفي معظم الروايات فإن المرأة هي المحور الذي تدور حوله الأحداث الرئيسية، يضع نجيب محفوظ المرأة وسط المشكلة التي يريد أن يعالجها في روايته،

[16] العشماوي، فوزي. المرجع السابق، ص11.
[17] العشماوي، فوزية، المرجع السابق، ص29.

وتشترك كل الشخصيات الأخرى معها في عرض المشكلة بأبعادها المختلفة، ومحاولة إيجاد الحلول المختلفة لها"[18]. وهذا واضح –إلى حد ما- في مجمل روايات نجيب محفوظ.

العنوان (السراب) بين الرمز والواقع:

تُعدُّ رواية السراب إحدى أهم روايات نجيب محفوظ الأولى[19]، فقد كسر بها عنصر التوقع لدى جمهوره، فجاءت سيكلوجية، تُعنى بالجانب التربوي النفسي، على حين غلب على رواياته الأُخر الجانب الاجتماعي الواقعي. ولعل ذلك يعود إلى قراءاته في علم النفس، أو إلى أسباب أخرى ليس هذا مجال تلمّسها[20].

ومن الجدير أن اختياري لهذه الرواية من دون غيرها ليس محكوما بأية قصدية مُسبّقة، فكل الأعمال الخالدة تُتَرجم عن نفسها، مُنتظرة من يُراجعها وفق مناهج جديدة، فمثل هذه الأعمال ذات دلالات مفتوحة، لا يُمكن أن يُقطع فيها برأي مفصلي، كما لا يمكن الإحاطة بجميع زواياها النقدية، فكلما ازداد الناقد معرفة، قرأها قراءة جديدة، أو هكذا –على الأقل- ينبغي أن يكون.

ومن الذين كان لهم حظ المشاركة في دراسة هذه الرواية الدكتور عزالدين إسماعيل ذو القراءة النفسية المشهورة، في كتابه الموسوم بـــ: التفسير النفسي للأدب، حيث حلّلها تحليلا نفسيا في مقاربة مع عقدة "أورست" وعقدة "أوديب"[21]. وقد رأى أن جمع كامل رؤية بين

---

18 العشماوي، فوزية، المرجع السابق، ص29.

19 كتبت سنة ثمان وأربعين وتسعمئة وألف للميلاد.

20 انظر على سبيل المثال: راغب، نبيل، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ: دراسة تحليلية لأصوله الفكرية والجمالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1975، ص205، ص220. فقد أعاد ذلك إلى قراءات نجيب محفوظ في هذه الفترة في علم النفس، وهي عنده أول رواية نفسية لنجيب محفوظ بالمعنى الفني لها في الأدب العربي، وذكر أن لهذه الرواية مزايا ربما لم تتمتع بها باقي قصص نجيب، ص205.

21 انظر: إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص250-271.

الشخصيتين فيه تناقض ظاهر، فأوديب قتل أباه، وأورست قتل أمه، وهذا ما كان من كامل على تفسير مذكور في دراسته[22].

ونحن نخالف الدكتور فيما توصّل إليه من تناقض في عمل نجيب محفوظ، فلم يكن نجيب محفوظ يُفصّل روايته على هاتين الشخصيتين، وما دراسة الدكتور عزالدين إلا مقاربة، وهي مقاربة ممكنة، لكن، أن يخرج بنتيجة كهذه فلا. يقول: "ومعنى هذا أن التناقض في شخصية كامل "الأوديبية الأورستية" لم تقض به ضرورة فنية أو ضرورة نفسية، وأنه ليس إلا تعقيدا في تركيب هذه الشخصية لا مبرر له، ومن ثم كان وجه العجب..."[23]. لكنه عاد في نهاية دراسته وقدم تفسيرا رمزيا أعجبني، إذ إن فيه توافقا مع غاية الرواية ، وتسلسل أحداثها، حيث رأى أن قيود الأم تمثل رمزا للماضي البائس، وأن تخلّصه منها إشارة إلى تخلصه من هذا الماضي، والبحث عن المضمون الاجتماعي التقدمي[24]. وقد رأينا صعوبة التخلص من الماضي الذي تمثله أمه، وهكذا الحال مع التغيير، لأنه يتحدث عن تغيير مرحلة وليس تغيير فرد.

وقرأها الدكتور محمد رجا الدريني في دراسة له بعنوان: "أبناء وعشاق" لـــ د. هـــ. لورانس، و"السراب" لنجيب محفوظ: دراسة مقارنة في التكنيك"[25].

ولعل هذه إشارة الدكتور نبيل راغب من قبل في كتابه: قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ: دراسة تحليلية لأصولها الفكرية والجمالية، ولكن الدكتور الدريني طوّر هذه الإشارة، وأقام

---

22 انظر: إسماعيل، عز الدين، المرج السابق، ص268.
23 إسماعيل، عز الدين، المرج السابق، ص269.
24 انظر: إسماعيل، عز الدين، المرج السابق، ص271.
25 انظر: الدريني، محمد رجا، "أبناء وعشاق" لـ د. هـ. لورانس، و"السراب" لنجيب محفوظ: دراسة مقارنة في التكنيك"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد الثاني، العدد الخامس، سنة 1982م، ص97-142. وقد سبقه إلى هذه الإشارة الدكتور راغب، نبيل، المرجع السابق، ص117-118. حيث يقول عن رواية السراب: في الرواية تجسيد درامي للصراع الداخلي مثلما نجد في شخصيتي مريام وكلارا بالنسبة لبول موريل في رواية "أبناء وعشاق" للكاتب الإنجليزي د. هـ. لورانس. ولم يكن عذاب الثلاثة: صابر وبول موريل وكامل رؤبة لاظ إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده".

عليها دراسة مستقلة، وليس هذا -طبعا- مقام نقد الدراسات، ولكنني عرضت لدراسة الدكتور عزالدين خاصة لشيوعها بين الأوساط العلمية، ولشهرتها.

ولا شك في أنه تم التعرض لرواية السراب في دراسة أعمال نجيب محفوظ عامة، ولعل الدكتورة فوزية العشماوي ممن عرض لهذه الرواية في كتابها الموسوم بـــ "المرأة في أدب نجيب محفوظ"، حيث ترى أن نجيب محفوظ في رواية السراب حرص على إبراز أهمية عمل المرأة، من وجهة نظرها، فجعل رباب جبر فخورة بعملها، حتى إنها لتعد عملها جزءا من شخصيتها، هذا في مرحلة كان العمل خارج البيت يُعدُّ جرما أو شيئا غريبا[26].

وهذا تأويل وجيه، ففي الرواية صورة رمزية للخروج عن المألوف، فبإمكان المرأة أن تبدأ عملها، وأن تقدسه، ولكن، ليس له أن تخرج عن ثقافة الجماعة، وإلا هلكت، وقد رأينا ما حل برباب. فنجيب محفوظ يدعو إلى تحرر المرأة من القيود، فلْتتعلم، ولْتعمل، لكن، ليس لها – على الأقل في هذه المرحلة- الخروج عن تقاليد الجماعة، فلا ينبغي لرباب أن تُقيم علاقة غرامية مع شخص آخر، وهي على ذمة رجلها، مهما كانت الأسباب، ومن ثَمّ فإن نجيب محفوظ يدعو إلى تحرر مضبوط ومسؤول، وليس عشوائيا عبثيا.

والذي أشمّه من ثنايا الرواية أن في هذا أيضا رمزا إلى مصير مصر خاصة، والأمة العربية عامة، فهو يُجيز لمصر أن تتحرر، ولكنه يحذرها في الوقت نفسه من ازدواجية العلاقات، أو من قلب ظهر المجن لشعبها، فإن فعلت ذلك، فإن مصيرها كمصير رباب، وكذلك الحال مع باقي الدول العربية. وهو تأويل قد يراه بعض النقاد بعيدا، ولكنني أراه ممكنا، غير بعيد.

[26] انظر: العشماوي، فوزية، ص36. مع الإشارة إلى أن دراستي هذه ليس هدفها استقصاء الدراسات حول هذه الرواية، ففي اعتقادي هناك دراسات أخرى عالجت هذه الرواية من جوانب نقدية أخرى، ولكن جانب العنوان خاصة لم يكن له نصيب مفروض فيما أعلم.

وبعد، فمما تقدم نلاحظ أن الباحثين عدلوا جميعا عن قراءة عنوان الرواية قراءة سيميائية أو مقاربة سيميائية، كما سمّيتها في عنوان هذه الدراسة، ولذلك كانت هذه القراءة، التي أدعو من خلالها إلى قراءة عناوين أعمال نجيب محفوظ كلها أيضا على نحوها، من باب التجديد في زاوية النظر النقدي. مع عدم التقليل من أهمية أي قراءة نقدية جادة سابقة أو لاحقة، كما أن قراءتي هذه لا تدّعي أنها ستوصد الأبواب النقدية في وجه القراء أو النقاد، وكذلك لا تلغي باقي العناصر الروائية التي تحتاج إلى قراءة، فالمكان عند نجيب محفوظ، يحتاج هو الآخر إلى قراءات جديدة، فلنجيب محفوظ مع المكان لمسات إبداعية خاصة، فلا يذكر المكان لمجرد الذكر كما هو الحال عند بعض مدّعي الأدب، با يشخّصه، ويحركه، كأنك تراه رأي العين، فالشرفة، أو المحطة، في رواية السراب على سبيل المثال ليستا مكانين فحسب، وربما كان هذا من الأسباب المباشرة في سهولة تمثيل أعماله، وعرضها سينيمائيا[27]، وكذلك الحال مع قهوة النوبيين، والتكسي، وبيت الخياطة، والحانات، وغير ذلك مما جاء في رواية السراب وغيرها. والأمر نفسه مع الشخوص وباقي العناصر الفنية في الرواية.

وعلى العموم، فقد اعتدنا في روايات نجيب محفوظ على ثوابت كثيرة، منها: النهايات المأساوية المفتوحة، التي يختم بها قصصه[28]، وكذلك على ما في رواياته من رمز، ولعل اتّكاءه على مثل هذه الخواتيم، وعلى الرمز خاصة، يجعل أعماله الأدبية سائغة لقراءات متعددة، وفضاءات مفتوحة، ودلالات واسعة[29]، وقد رأينا صورا لذلك فيما تقدم. ثم إن مخاطبته للنفس البشرية عامة، وتشخيص عيوبها، وأمراضها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية جعلت لأدبه خلودا فاق كثيرا من الأعمال الأدبية الأخرى.

---

[27] انظر: النحاس، هاشم، نجيب محفوظ على الشاشة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، 1975م.

[28] انظر: شكري، غالي، معنى المأساة في الرواية العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2. 1980م.

[29] انظر: الشطي، سليمان، الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004م.

ومع ذلك، أرى لزاما عليّ قبل الدخول في تعانق سيميائي دلالي للعنوان في رواية السراب، أن أقرّر - إضافة إلى ما تقدم – أمرين مهمين في هذا المقام، وقد متحتهما – كما غيري – بعد قراءة أعمال نجيب محفوظ، على أنني أشرت إلى الأول منهما على نحو ما في ما تقدم، ولكنني أؤكده هنا.

أحدهما عام ل يخص هذه الرواية وحدها، وإنما يشمل جميع أعمال نجيب محفوظ: إذ من المعلوم للباحثين فضلا عن الطلبة الدارسين، أن نجيب محفوظ في أعماله الأدبية جميعها يصدر عن معرفة واسعة، وعن فلسفة ظاهرة، فهو الرجل العالم بما يكتب، البصير بنقده الاجتماعي، المتتبع لعيوب المجتمع العربي عامة، والمصري خاصة. على أن نقده هذا – كما هو معلوم أيضا – لا يخلو من تربية، ففي أعماله محاورة للجانب النفسي، وللضمير الفردي والجمعي. وهذا يعني أن نصوصه قابلة لقراءات متعددة، ولإمكانية تحميلها دلالات متنوعة.

الثاني: خاص بهذه الرواية، ذلك أننا لسنا بحاجة في هذه الدراسة إلى مقاربة هذا العنوان بصورة السراب الوارد في الآية القرآنية، فحسبنا أن نستعرض مجمل العلاقات التي كانت نهايتها أشبه ما تكون بسراب، أو خراب، أو حب تائه، أو علاقة عرجاء – إن جاز التعبير -، فصورة السراب ماثلة في وعينا بجميع حيثياتها.

ومن ثمّ أقول: إن في رواية السراب صورة حقيقية للحب التائه، أو الحب الأعمى، وإن شئنا: فالعلاقات المشوهة. ولعل في اختيار نجيب لهذا العنوان توفيقا لما تبوح به الرواية، ولما سكتت عنه أيضا، فكل العلاقات التي كان يؤمّل من ورائها الاستمرار أو التوفيق، أو كانت بداياتها يُظنّ لها الخير والنجاح، انتهت بسراب لاذع، ومآس قاسية، وفي السراب للباحثين عن الراحة والطمأنينة أذيّة معلومة.

قلت ما تقدم لأنني على يقين تام أنّ عنوان الرواية لا بد يحمل مفتاح تحليلها، وهذا شأن الأدب العالي، أو النصوص الخالدة، ففي القرآن الكريم –على سبيل المثال – يترجم اسم السورة عن موضوعها، إلى أن تتعانق جميع الجمل الآتية في نظام دقيق مع العنوان. وهذا لا يمنع - بالضرورة - أن نجد شبيها، مما لا يدانيه طبعا، في النصوص الأدبية العالية كذلك عند كبار الأدباء، أمثال نجيب محفوظ. **ولذلك فإنني أزعم أن ما في هذه الرواية من علاقات اجتماعية، وغير اجتماعية يمكن مقاربتها سيميائيا مع عنوان الرواية (السراب)، وذلك على النحو الآتي:**

العلاقة الأولى[30]: (أم مدحت وزوجها) نهاية "زينب" أم مددحت وأم راضية وأم كامل، زوج رؤبة بك لاظ، وكريمة الأمير الاي عبد الله بك حسن. "ما كاد ينقضي أسبوعان على ليلة الزفاف، حتى عادت أمي إلى بيت جدي دامعة العينين كسيرة الفؤاد"[31]، عادت بعد أن حملت براضية، ثم وضعتها في بيت الجد (الأمير الاي عبد الله بك)[32]، ثم عادت لزوجها في مساعي الإصلاح بين الطرفين، ولكنه طلقها في حملها بمدحت[33]، ثم عادت الثالثة في ظروف استثنائية، فبينما كان الجد يغادر ناديا للقمار، قبيل الفجر، إذ رأى نفرا من السوقة يلتفون بأفندي، ويوسعونه ضربا، وهو يتخبط بينهم، وإذا بالرجل المضروب رؤبة لاظ[34]. عادت أم مدحت لزوجها على إثر توبة كاذبة منه[35]، إلا أن العلاقة بين الزوجين لم يُكتب لها الدوام، لتكون نتيجة العودة هي الحمل ببطل روايتنا (كامل)[36]. فمجيئه لم يكن بترتيب، وإنما على

[30] ملحوظة: قد يرى بعض الباحثين تقديم علاقة على أخرى، أو إعادة ترتيبها على نحو ما، فهذا جائز ولا غضاضة في ذلك، فما صنعته مجرد ترتيب اجتهادي.
[31] محفوظ، نجيب، السراب، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2007م، ص12.
[32] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص13.
[33] انظر: محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص13.
[34] انظر: محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص14.
[35] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص16.
[36] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص16.

إثر حادث عرضي، وكما يقول الجد ممازحا بطلنا: "لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحماقتي أنا دون سواي"[37].

ونحن نلاحظ في مقاربتنا أن السراب يتخلل العلاقة بين المرأة وزوجها، ففي كل رجعة، كان يؤمّل من ورائها إصلاح ودوام، إلا أنها تنتهي –كما رأينا- بحسرة وسراب، إذ السراب هو شعار هذا المستوى الذي كان يؤمّل منه التوفيق وجمع الشمل، ومن ثَمَّ البناء الأسري.

العلاقة الثانية: (أم مدحت وابنها كامل) حرصت أم مدحت بعد انفصالها عن زوجها، وأخذ ولديها منها: راضية ومدحت، حرصت حرصا شديدا على إبقاء كامل في حضانتها، فكان لها ذلك على نحو ما، وقد مارست كل سلطات الأمهات على الأبناء، من أجل إبقائه قريبا منها، بل وصلت بها الحال إلى أن تكون هي الأم والصديق والأخ والزوجة -مجازا- أعني جعلت من نفسها حياة كاملة له، ومن يُنازعها هذه الحياة يقتلها[38]، إلى أن بدأ كامل يشب عن الطوق في ذهابه إلى أماكن مرفوضة اجتماعيا[39]، ثم زواجه من بعد من رباب[40]، وعداوة الأم لرباب[41]، وما كان يجري بينهما من صراخ[42]، إلى أن ماتت رباب أو قُتلت في العملية، قصدا أو عن غير قصد[43]. ثم ما كان من كامل، الابن الذي توقعت منه الأم أن يكون سندها، أو حياتها، جاء وفي عتاب حاد لأمه، لم يخل من صراخ[44]، كانت نتيجته موت الأم،

37 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص16.
38 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص19.
39 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص116 وما بعدها.
40 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص219، ومن قبل كذلك ترتيبات العرس.
41 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص246.
42 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص248، ص315-316.
43 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص330.
44 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص352-356.

فقد قتلها بكلماته، وهَجْرِه لها، وعدم رعايتها على الوجه الذي كانت تتوقعه[45]، فكان ختام الأم من هذه العلاقة سرابا قاتلا، كل ما توقعته صار هباء منثورا.

العلاقة الثالثة: (أم مدحت وزوجة ابنها: رباب) من المفروض أيضا أن تكون العلاقة حميمة أم الزوج وزوجته، بغض النظر عن صورتها في الحياة العامة، إلا أن ذلك لم يكن، وكان الصراخ، والنّفار[46]، ومن ثَمَّ سراب الآمال من زوجة ظاهرها الحشمة والصلاح، وباطنها العداوة والبغضاء.

العلاقة الرابعة: (راضية ومدحت مع أمهم) لم تتوثق العلاقة بين الأخوين وأمهما، فقد تزوجت راضية بداية و لم تحضر الأم زفافها؛ لأنه تمّ على نحو غير طبيعي، فقد هربت البنت إلى حبيبها، وتزوجت في بلده، من دون علم أهلها[47]، وتزوج مدحت، و لم تحضر الأم لانشغالها بمرض أو عارض طرق ابنها كاملا، أنساها الدنيا وما فيها[48]. فكان السراب والخراب، إذ لم تحضر الأم فرح ابنيها، وتركت بحسرتها، وألمها من هذه العلاقات الموجعة.

العلاقة الخامسة: (رؤبة لاظ مع أبيه الثري) الأصل أن تكون العلاقة بين الوالدين وأولادهما طبيعية، إلا أن رؤبة لاظ استعجل موت أبيه من أجل الإرث، فدسّ له سمّا، انكشف على إثره أمره، فخرج من قصر أبيه صاغرا ذليلا[49]، وهكذا لم يجد أمامه بعد ما أمل من خيرات إلا سرابا قاتلا، وعزلة دائمة، انتهت بموته[50].

45 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص354-356، ص60.
46 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص245 وما بعدها، ص315-316.
47 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص40-43.
48 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص73.
49 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص13.
50 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص167.

العلاقة السادسة: (كامل مع أبيه) حُرم كامل من اتصاله بأبيه، إلى أن اضطر لزيارته نزولا عند رغبة جده؛ خشية الفاقة، وضمانا لمستقبله، وكذلك للمساعدة في أقساط الدراسة، إلا أنه وجد نفورا غير متوقع[51]، ثم قصده مرات أخر، كان من أهمها: أيام تفكيره بالزواج من رباب، في مرتين مشهودتين، ولكن والده صدّه صدودا كبيرا[52]، إلى أن مات الوالد السكير العربيد[53]، فكان لكامل ما كان من وِرثة أبيه[54]. وهكذا فقد بدأت العلاقة متصدعة، وانتهت سرابا مدمرا –إن جاز التعبير-، فكم أمّل من أبيه، ولكنه رده خائبا في كل مرة، ظمآن يحسب عند أبيه حلا، فلا يجد حسرة وويلات وسرابا.

العلاقة السابعة: (كامل مع الدراسة) تنعّم كامل بداية حياته في كنف جده لأمه، وفي رعاية والدته، حتى ظن الجد والأم به خيرا في الدراسة، أو من المفروض أن يكون ذلك كذلك، فعلى الرغم من تأخره في دخول المدرسة، أخذت أمه على عاتقها توصيله وإرجاعه[55]، ولكنه أخفق بامتياز، أخفق في مدرسة الروضة الأولية الأهلية[56]، وفي الابتدائية، في مدرسة العقادين[57]، وفي كتابة اسمه[58]، حتى اتخذت له لاحقا أستاذا خاصا، ومع ذلك تجلس الأم غير بعيد من باب حجرة المدرس كي يطمئن ابنها، ولعله يستنجد بها عند الحاجة، على حد قوله[59]. و لم ينتقل من مرحلة مدرسية إلى أخرى إلا بعد الرسوب المتسلسل، وربما كانت الأم تعوّذه ببركات السيدة زينب، فتنذر النذور، وتلف حول عنقه التعاويذ[60]، وأخفق في الثانوية،

51 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص63-70.
52 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص138-141، ص156-161.
53 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص167.
54 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص172.
55 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص29.
56 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص26.
57 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص37.
58 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص32.
59 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص32.
60 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص78.

في مدرسة السعيدية[61]، وفي البكالوريا أمام منصة الخطابة، في الجامعة المصرية[62]، فكانت القشة التي قصمت ظهره آخر الأمر، فترك الدراسة وتعيّن بمعرفة جدّه بإدارة المخازن في ديوان الوزارة العام[63]. ليكون السراب في غاية الوضوح، يسير معه، وكأنه دليله في كل مرحلة من مراحل حياته الدراسية، والاجتماعية، فنهاية الابتدائية لم يستطع كتابة اسمه، ونهاية الثانوية فشل مركب، ونهاية الحقوق منصة الخطابة، التي بقيت تلاحقه في جميع أزماته[64].

العلاقة الثامنة: (كامل مع جده) أمّل الجد من حفيده (كامل) أن يصبح في الحربية مثله، ولكنه خيب أمله في دراسته، وبخجله، حتى تجاوز السن القانوني الذي يسمح له بالانتساب للحربية، وهكذا كانت نهاية الأمل حسرة وسرابا. قال الجد "لو دخلت الحربية لضمنت لك مستقبلا حسنا، ولاطمأن قلبي عليك وعلى أمك"[65].

العلاقة التاسعة: (كامل مع زملائه) كانت علاقات كامل مع زملائه كلها سراب، فقد بدأت مع الصبية في الحي كلهم يلعبون، حتى انتهى الأمر بضربه، ثم ترك اللعب يمضي سرابا[66]، حتى لعبه شهرا مع أولاد خالته، فقد أنهته له أمه هي الأخرى بالسراب، حين قالت له: "كفاك لعبا، وجريا في الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إليّ كما كنت لا تفارقني، ولا أفارقك"[67].

وفي المدرسة اخفق في إقامة أية علاقة مع زملائه[68]، وزاد الطين بلة، أن تحوّل الزملاء إلى ساخرين مستهزئين، يلمزونه بالأقوال المهينة، وينبزونه بكل سخرية وضيعة[69]. إلى ان استقر

61 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص74.
62 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص91.
63 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص96.
64 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص251.
65 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص80.
66 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص21-22.
67 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص24.
68 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص27.
69 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، انظر على سبيل المثال: ص38، 37، 31، 39، 58، 76.

أمره في العمل، ومع هذا الاستقرار النسبي لم يستطع أن يقيم أي علاقة ، وقصارى أمره ان يستمع إلى نكتهم، وأحاديثهم المبتذلة[70]، هذا فضلا على التعليق الدائم عليه، استهزاء، وسخرية، وتسلية، واستغلالا. فكانت صداقة لهم، عبارة عن زمالة مكاتب كما نعتها[71].

العلاقة العاشرة: (كامل مع حيّه) لم يعرف بطلنا من حيّه سوى شارعين، وبعض الشوارع من بلده، ذلك انه لم يكن يخرج من بيته أصلا إلا بصحبة أمه أو جده، وإلى أماكن خاصة، فلم يكن له –والحال ما ذكرت- من الرصيد المعرفي إلا السراب[72].

العلاقة الحادية عشرة: (كامل مع نفسه): بقي كامل في صراع مع نفسه، نتيجة لتربيته الخجولة، لم يستطع ان يتصالح مع نفسه، بقي مضطربا، بين الدراسة والبيت، وبين الخلاق وانتهاكها، وبين ما يجوز ولا يجوز[73]، ومع أنه من المفترض أن تكون العلاقة حميمة بين كامل ونفسه، إلا أن علاقته كلها لفها السراب، فكان قلقا، حائرا، لم يستطع أن يتخذ قرارا ناجحا يكون مسؤولا عنه، فكل ما أنجزه على مستوى نفسه سراب[74].

العلاقة الثانية عشرة: (راضية مع أبيها): هربت راضية، بعد أن رفض أبوها تزويجها من صابر أفندي أمين، وتواعدت مع حبيبها، وعقد عليها في غياب

[70] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص225.
[71] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص98.
[72] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص38.
[73] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص116.
[74] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، انظر على سبيل المثال: ص57، 116-175، 122، 195، 200، 220، 247، 251، 256.

أبيها[75]، وهكذا حل السراب في علاقة البنت مع أبيها، فمن المفروض أن يسعى الأب في سعادة ابنته، ولكن عكس ذلك كان، فلا البنت بقيت مع أبيها، ولا الأب نظر في متابعة القضية.

العلاقة الثالثة عشرة: (كامل مع زوجته): لما قصد كامل الجامعة المصرية تعرف لفتاة تسكن في عمارة مقابل المحطة الأولى من ذهابه إلى الجامعة أو العمل لاحقا[76]، واستمر إعجابه من دون أن يفاتحها بأي أمر، إلى أن بان أمره لأهلها، ثم تقدم منافسه، محمد جودت[77]، فرفضته الأم لسنه، وزواجه من قبل، حيث أن له انة في الخامسة عشرة من عمرها[78]، ثم فاتح كامل البنت بعد وفاة أبيه، وتملُّكه مالا، فأخبرت البنت اهلها، ثم سألوا عنه بعد لقاء مع أبيها[79]، إلى أن وافق الأب، وكان الزواج لاحقا بعد فترة من الخطوبة والهدايا السخية، إى أن زواجه كان غريبا، فقد لفّ بطلنا الخجل، من قبل ومن بعد[80]، فلم يُفلح في علاقته الزوجية، وما كان منه إلا اللجوء إلى ما كان عليه من قبل، إلى الاستمناء على حد تعبير الفقهاء، أو إلى العادة المرذولة الجهنمية كما سماها نجيب محفوظ[81]، وإلى الحانات كما كان أيضا من قبل[82]. ومع كل ذلك كان يحب فتاته حبا جما، إلى أن وقعت

[75] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص40 وما بعدها .
[76] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص82 وما بعدها .
[77] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص152.
[78] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص193-194.
[79] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص199، وما قبلها وما بعدها.
[80] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص212. وما قبلها وما بعدها.
[81] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص235.
[82] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص257.

عينه على خطاب في يدها[83]، كانت نتيجته الشك والمراقبة، ليكتشف خيانة محبوبته، ليس من مراقبته، لكن من تسلسل الأحداث[84]، ثم يفاجأ لاحقا بعارض مرضي طرقها[85]، حتى انتهى بها المطاف أن تمرّض في بيت أمها[86]، ليعود من العمل مبكرا قلقا على زوجته رباب، فيرى أنها ماتت، بل قُتلت من قبل أمها والطبيب أمين رضا الذي ادّعى أن البروتون انثقب[87]، وهذا الطبيب هو نفسه الذي علم أن كاملا مصاب بمرض نفسي يمنعه من الاتصال الحقيقي بزوجته، وذلك بعد أن عرض كامل نفسه عليه يوما ما، بعد أن اشتدّت به الحاجة للخلاص من ورطة الخجل أمام محبوبته، والإحراج أمام أمها خاصة[88]، ليتبين أمام تقرير الطبيب الشرعي والنيابة أن زوجته كانت في عملية إجهاض، خانته مع الطبيب[89]، فكانت نهايته سرابا مركبا، فقد توقع منها حبا لا يشوبه شائبة، لما تتمتع به رباب من حشمة ووقار وأخلاق، وهكذا كان ظنه بها حتى أيام مراقبتها[90].

[83] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص266 وما بعدها.
[84] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص280 وما بعدها.
[85] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص320 وما بعدها.
[86] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص321.
[87] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص322-330.
[88] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص240-244.
[89] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص332-350.
[90] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص281.

العلاقة الرابعة عشرة: (كامل مع السيدة زينب): ذهب كامل مع أمه للمقام تائبا من معاقرة الخمر، كما أرادت له أمه[91]، ولكنه عاد إليها[92]، و لم يُلقِ بالا لزيارة السيدة أم هاشم بالا[93]، فما كانت بالنسبة لبطلنا إلا زيارة سرابية خادعة، نزل بها عند رغبة أمه، إرضاء لها، وخشية الوقوع تحت غضبها.

العلاقة الخامسة عشرة: (كامل مع أهل زوجته): بدأ معهم بداية لطيفة[94]، ثم تعكر صفو العلاقة بسؤال الأم لابنتها عن الحمل[95]، وأخيرا انتهت العلاقة بضلوع الأم في قتل ابنتها كما رأى كامل[96]. فكان السراب، فالأم هي الملجأ والملاذ، ولكنها كما رأينا كانت جزءا من المشكلة، بل كانت نذير شؤم على ابنتها، وعلى صهرها.

العلاقة السادسة عشرة: (كامل مع الطبيب أمين رضا) من المفروض أن تحاط اسرار المرضى بجدار سميك من السرية، ولكننا وجدنا صديق العائلة الطبيب أمين رضا، بعد ان عرف حالة كامل مع رباب[97]، يتصل برباب، وربما بغير إرادتها في عرض نفسها عليه طبيا –لم يُفصح لنا نجيب محفوظ عن هذا الاتصال، ولا كيف

[91] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص125.
[92] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص143.
[93] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص126.
[94] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص205.
[95] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص236 وما بعدها.
[96] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص330.
[97] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص240-244.

كان- ولكنه أشار إليه إشارات، من كثرة الزيارات للأقارب والمعارف[98]، وتغير نفسية رباب[99]، وتلقيها خطابا مجهولا على حد زعمها[100]، وطلب أمها منها أن تعرض نفسها على طبيب[101].

هذه كلها إشارات يمكن أن نحدس من خلالها بخيانة رباب لزوجها، لكننا لا نستطيع أن نجزم بشيء. فهذا الطبيب الذي يفترض أن يكون وعاء أمينا لأسرار المرضى، يستغل سر مريضه ليطعنه في شرفه. وبذلك نرى سراب الثقة بين الطبيب ومريضه، بل نرى أيضا –في كثير من الأحيان- ما بعد هذا الخداع أو السراب، من نتائج.

العلاقة السابعة عشرة: (كامل مع عنايات): تعرف كامل لهذه المرأة، تلك المرأة الدميمة الخلقة، الكبيرة في سنها، السمينة التي تخلو من أي مطمع جمالي، تعرّفها أيام كان يُراقب زوجته بعد الخطاب المشؤوم[102]، واتصل معها جنسيا في سيارتها[103]، وفي بيت الخياطة لاحقا[104]. فما كان من ذلك إلا السراب، فلم يجد عندها الراحة الأبدية، بل كانت معادلا موضوعيا لخيانة زوجته، وربما مجيئها

98 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص248 وما بعدها.
99 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص262.
100 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص266 وما بعدها.
101 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص315-316، وهذا ما يؤكده الدكتور نبيل راغب أيضا، حيث رأى أن نجيب محفوظ لم يمهد للخيانة التمهيد اللازم، بل قام الأمر على المصادفة، لكنها مصادفة بإشارات، منها النفور وغيره، وقد اعتذر لنجيب محفوظ حيث يرى أن البطل كان ضيق النظرة، محدود الأفق، ينظر إلى زوجته بعين الشك الطفولي، ويتتبعها بسذاجة الأطفال وبراءتهم، دون أن يحاول فهم العلاقة بين زوجته عائلتها. انظر: نبيل راغب، المرجع السابق، ص216-218.
102 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص283-300.
103 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص300-308.
104 محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص312-313.

في هذا التوقيت كان مقصودا، فلما خان الزوج خانت الزوجة أو العكس. لتأتي في نهاية الرواية رافعة لواء السراب الحقيقي، وكأنه لم يبق لك يا كامل إلا السراب، فقد تحطمت جميع العلاقات التي كان يؤمل من خلالها الاستمرار، حتى حضرت عنايات في المشهد الأخير للرواية، وفي ذلك من الدلالات ما فيه[105].

وهكذا فقد حلت الحانات الخادعة السرابية مكان بيت الزوجية، وبيت الأمومة والرعاية، وذلك بعد تحطمهما، وما الحانات في النهاية إلا خروج على المألوف أو الطبيعي[106].

وحلت المجلة مكان أية مرجعية حقيقية، يستشيرها أحيانا في قضاياه الحرجة[107].

وحلت كذلك العادة الجهنمية المرذولة مكان الزوجة[108]، ومكان العادات الحميمة، التي كان ينبغي أن ينشغل بطلنا بها أيضا.

وبهذا يكون بطلنا قد جمع عناصر السراب كلها، تحطمت أمامه كل العلاقات الاجتماعية الحميدة، وما بقي بعدها إلا السراب المرذول.

وفي الختام: نخلص إلى ان السراب، وأحيانا السراب القاتل، هو نهاية هذه الرواية، فلم يتبق منها إلا العلاقات غير الشرعية، أو غير الطبيعية، أو ما فيها خروج عن القوانين الاجتماعية، كالتي

[105] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص369.
[106] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص256-260، 265، 351.
[107] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص89، 105.
[108] محفوظ، نجيب، السراب، المرجع السابق، ص77، 89، 115، 225، 228، 235، 224.

ذكرت آنفا. وفي هذا رمزية خطيرة، ودلالة مشؤومة لتاريخ المنطقة التي يتحدث عنها نجيب محفوظ، فهل كانت مصر كذلك، وهل هذا استشراف أديب لمستقبل الخير والشر في بلده، وفي البلاد العربية عامة، فاللهم لُطفك، أو كما كان يقول جبران على لسان سلمى كلما اشتّت الأمور، أو ادلهمّ الخطب: "أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة"[109].

فهرست المراجع:

- إسماعيل عزالدين، التفسير النفسي للأدب، دار المعارف، القاهرة، 1963.
- بارت، رولان، درس السيميولوجيا، ت: عبد السلام بن عبد العال، دار توبقال، المعرفة الأدبية، 1993م.
- جبران خليل جبران، الجنحة المتكسرة، دار الجيل، بيروت، 2005م.
- الجزار، محمد فكري، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م.
- حمداوي، جميل، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، ع3، م25، 1997م.
- الدريني، محمد رجا، "أبناء وعشاق" لـــ د.هـــ. لورانس و"السراب" لنجيب محفوظ: دراسة مقارنة في التكنيك"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المجلد الثاني، العدد الخامس، سنة 1982م.
- راغب، نبيل، راغب، نبيل، قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ: دراسة تحليلية لأصوله الفكرية والجمالية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1975.
- زويش، نبيلة، تحليل الخطاب السردي في ضوء المنهج السيميائي، منشورات الاختلاف، ط1، 2003م، الجزائر.

[109] جبران خليل جبران، الجنحة المتكسرة، دار الجيل، بيروت، 2005م، ص116-141.

- سعد الله، محمد سالم، مملكة النص، التحليل السيميائي للنقد البلاغي: الجرجاني نموذجا، جدارا للكتاب العالمي، عمان، 2007م.
- الشطي، سليمان، الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004م.
- شكري، غالي، معنى المأساة في الرواية العربية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2. 1980م.
- العشماوي، فوزية، المرأة في أدب نجيب محفوظ: مظاهر تطور المرأة في مصر المعاصرة من خلال روايات نجيب محفوظ(1954-1967)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2002،1م.
- عويس، محمد، العنوان في الأدب العربي: النشأة والتطور، 1993م.
- قطوس، بسام، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، 2001م.
- محفوظ، نجيب، السراب، ط2، دار الشروق، القاهرة، 2007م.
- النحاس، هاشم، نجيب محفوظ على الشاشة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، 1975م.
- الهميسي، محمود، براعة الاستهلال أو في صناعة العنوان، بحث مقدم إلى مؤتمر النقد الأدبي السادس، جامعة اليرموك، 15-1996/17م، ونشر في الموقف الأدبي، ع313، السنة27، أيار، 1997م.
- يحياوي، رشيد، فضاء العنوان الشعري، ضمن كتاب: الشعر العربي الحديث: دراسة في المنجز النصي، إفريقيا الشرق، بيروت، 1998م.